المجلة العلمية لكلية الآداب مج١٣، ع ١ (٢٠٢٤) ٢٢٧- ٢٤٢
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

التناص في كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري

علياء حمدي جابر محمد الصعيدي[١] عزة حسين غراب[٢]
إيمان طاهر علي حمودة[٣]
[١] طالبة دكتوراه، [٢] أستاذ مساعد العلوم اللغوية المتفرغ، [٣] مدرس علم اللغة - قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة دمياط

المستخلص

هذا البحث بعنوان (التناص في كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري) ويهدف إلى استجلاء آليات هذه الظاهرة في علم اللغة التراثي وعلم اللغة الحديث وتتبع مصادرها وسماتها وخصائصها في أهم النصوص الوصفية ؛ حيث كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، وقد أمكن التوقف أمام خمسة من المصادر التي وقع التناص معها وشاع استعمالها كثيرًا في الكتب محل الدراسة، وهذه المصادر هي (القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي، والأقوال والأمثال وما يجري مجراها من حكم وغيرها)، وقد انتهى البحث إلى أن ظاهرة التناص بمفهومها الحديث ليست بجديدة على الواقع اللغوي ، وقد أمكن التمييز بين نوعين من أنواعها في كتب الرحلات، حيث التناص المباشر أو الاجتراري، ويشمل الاقتباس والاستشهاد وغير ذلك، والتناص التصويري القائم على التفاعل الدلالي غير المباشر بين النصوص السابقة واللاحقة، ولكل منهما آليات في الدمج السياقي تختلف باختلافهما وعلى ذلك يكون مفهوم التناص مفهومًا تراثيًا استعملته كتب الرحلات لمناسبته الشديدة لطبيعة هذه النصوص الوصفية، وهو ما يملي على المؤلف التماس المباشر أو غير المباشر مع نصوص الثقافة العربية بدرجات مختلفة، وتكون براعته متوقفة على حسن توظيفه لهذه النصوص التي يستعين بها المؤلف في كتب الرحلات على إكمال صورته الوصفية للرحلة التي يتحدث فيها، أو الصورة التي يريد إيصالها إلى الطرف المتلقي للرحلة، وقد أمكن للباحثة أن تخرج بنتائج مختلفة، لعل من أهمها أنّ للتناص مستويات متفاوتة في التفاعل النصي أو الدلالي بين النصوص، فقد يكون مباشرًا كما يقع في الاقتباس والاستشهاد وغير ذلك، وقد يكون تفاعلًا ضمنيًا، أو إيحائيًا، وهو الذي يكون مطلوبًا ويحتاج إلى براعة لصياغته أو استكشافه أو تحليله في النصوص المختلفة، خاصة في الرحلات.

الكلمات المفتاحية: التناص، أدب الرحلات، القرن الرابع الهجري.

تاريخ المقالة:
تاريخ اســـــتلام المقالـــة: ٢٠٢٣/٦/٣
تاريخ استلام النسخة النهائية: ٢٠٢٣/٦/١٨
تاريخ قبـــول المقالـــــة: ٢٠٢٣/٧/١٥

Scientific Journal of Faculty of Arts 13 (1) 2024, 227-242
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

Intertextuality in Travel Books in the Fourth Century AH

Alyaa Hamdi Gaber Muhammad Elsaedy[(1)] Azza Hussein Ghorab [(2)] Iman Taher Hamouda[(3)]

[(1)]Ph Student, [(2)]Emeritus Assistant Professor of Arabic Linguistics, [(3)]Lecturer of Arabic Linguistics -Arabic Department -Faculty of Arts - Damietta University

Abstract

"Intertextuality in the Travel Books in the Fourth Century AH" aims at shedding light on the mechanisms of intertextuality in traditional and modern linguistics. This study traces its sources, features and characteristics in the Travel Books which are one of the most important descriptive literary texts. It focuses on the most common five sources: The Holy Quran, The Noble Hadith, Arabic poetry and proverbs. The research concludes that the modern concept of intertextuality is not very new to the traditional linguistic domain. It is possible to identify two types of it: direct and indirect intertextuality. Direct or ruminative intertextuality includes quotation, citation, etc., while indirect pictorial intertextuality is based on indirect semantic interaction between previous and subsequent texts. The study indicates that each type of intertextuality has proved to have its distinct mechanisms in contextual integration. The traditional concept of intertextuality is used in the Travel Books as it suits its descriptive nature. This inspires the authors to refer directly or indirectly to other texts of the Arab culture in various degrees. The author's skillfulness depends on his clever use of these original texts to complete the depiction of the journeys in which s/he is narrating, or the image s/he wants to convey. The present researcher has succeeded in coming up with different results. Intertextuality has varying levels of textual or semantic interaction between texts. It may be direct as it occurs in quotation, citation, etc., or it may be implicit and needs ingenuity to formulate, explore or analyze

.**Keywords:** Intertextuality - Travel Literature - Fourth Century AH.

Article history:
Received 3/6/2023
Received in revised form 18/6/2023
Accepted 15/7/2023

مقدمة

إنَّ دراسة العلاقة بين النصوص ليست أمرًا مستحدثًا ؛ بل هذه العلاقة من خصائص اللغات، وفي اللغة العربية لا يُعَد الحديث عن العلاقة بين نصوص قديمة ونصوص جديدة وليدة هذا العصر **بل "درس القدماء من الأدباء والبلاغيين واللغويين هذه العلاقة بين نصوص سابقة ونصوص لاحقة استفادت منها، وتأثرت بها، وتفاعلت معها بل أفردوا مؤلفات في دراسة هذه العلاقة، ومنها الاقتباس من القرآن الكريم للثعالبي (ت٤٢٥هـ) "** [١] ، ولعل هذا من مقتضيات التراكم اللغوي الذي يساعد على حسن اكتساب اللغة.

ولكن الأمر اللافت للنظر هو تعدد المصطلحات الدالة على مفهوم هذه العلاقات بين النصوص تأثيًرا وتأثرًا، سواء أكان هذا التعدد في القديم أم كان في الحديث، وربما كانت البيئة البلاغية والنقدية أكثر البيئات اللغوية عناية بهذا المفهوم التناصي الحديث، حيث ظهرت في هذه البيئة مصطلحات من قبيل (التضمين- السرقات- الإيداع- الاقتباس) وغير ذلك من المصطلحات التي أصبحت فيما بعد مجالات التطبيق اللغوي في ظاهرة التناص في علم اللغة الحديث.

وعلى هذا " لم ينحصر عمل القدماء في حدود الإقرار بأهمية تفاعل النصوص ببعضها أثناء عملية الإبداع, بل سارعوا إلى رصد مختلف أوجه العلاقات، التي تأخذها هذه النصوص فيما بينها؛ و قد أعطوا لكل علاقة على حدة مصطلحًا خاصًا؛ وميزوا بين المحمود منها والمذموم والمقبول والمردود فتعددت مفاهيمهم ومصطلحاتهم، وتسابقوا في توليدها" [٢].

وبهذا تكون المصطلحات المختلفة في التراث اللغوي العربي حول العلاقات المتنوعة بين النصوص ممثلة لمستويات التناص بالمفهوم اللغوي الحديث، فأشدها حضورًا هو الاقتباس، في حين يكون التضمين نوعًا من التأثير الفني الشفاف بين النصوص بعضها ببعض، وهكذا يمكن استثمار المعطيات اللغوية التراثية في دراسات هذه العلاقات النصية.

أسباب اختيار الموضوع

كانت هناك أسباب مختلفة وراء اختيار هذا البحث، ويمكن تركيزها على النحو الآتي:

---

[١] أحمد عبد الراضي، المعايير النصية في القرآن الكريم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١: ٢٠١١م، ص١٧٧.

[٢]عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م، ص٤٠.

- استكشاف واقع ظاهرة التناص في التراث اللغوي العربي في ضوء معطيات علم اللغة الحديث والمعاصر.

- التعرف إلى مصدر مهم من مصادر التراث اللغوي العربي في أهم قرونه، حيث كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، والتوقف أمام أهم آليات التناص فيها لشدة علاقتها بذلك النوع من النصوص الوصفية.

- التعرف إلى أنماط التناص في الكتب محل الدراسة، وكيفية توظيف هذه الظاهرة في كتب الرحلات في القرن الرابع الهجري.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج الوصفي ، حيث إن موضوعه (التناص في كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري) وهو يدرس ظاهرة محددة الزمان والموضوع، فزمانها القرن الرابع الهجري، ثم تحليل هذا النهج الوصفي تحليلًا يوقف الباحث على أهم خصائص الظاهرة في كتبهم.

حدود البحث :

يركز هذا البحث على ظاهرة التناص في كتب الرحلات في القرن الرابع الهجري متمثلًا في كتابين ، هما : مروج الذهب للمسعودي **(٢٨٧-٣٤٦هـ)**- وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي **(٣٣٥- ٣٩٠هـ)** لبروز هذه الظاهرة بكامل خصائصها فيهما.

مفهوم التناص

التناص في اللغة:

ذكر ابن منظور أن المادة اللغوية (نصص) تعني النص ، والجمع نصوص وهو: رفع الشيء ، ونص الحديث ينصه نصًا رفعه ، وكل ما أظهر فقد نص ، ووضع على المنصة أي : على غاية الفضيحة والشهرة والظهور, وتناص القوم أي تزاحموا, وهذا المصدر بصيغته الصرفية يدل على المفاعلة.(١)

التناص في الاصطلاح :

اختلف كثير من النقاد العرب والغرب عند تحديد مفهوم التناص ، فقد عُرف بأنه: " تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلًا وظيفيًا, فيغدو النص المتناص خلاصة بعدد من النصوص التي أمحت الحدود بينها "(٢).

(١) ابن منظور : لسان العرب ، (تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٤١٤هـ، ص٧٩

(٢) حصة البادي : التناص في الشعر العربي الحديث (البرغوثي أنموذجًا) ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع ، ط١، الأردن ، ٢٠٠٩م، ص٢٩

ويعرف بأنه : " التفاعل داخل النص بين الطرائق المختلفة للتعبير أو اللغات المستقاة من نصوص أدبية أخرى أو من كتابات أخرى غير أدبية "(١).

والتناص غالبًا ما يقع في دائرة النصوص الدينية المقدسة، كالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ويعني ذلك تفاعلًا سياقيًا من نوع ما؛ فيكون الحذر من الخلط في تأويل سياق مقدس وتداخله مع سياق جديد واجبًا ، وإدراك العلاقات التي تنتج عن التناص أمر يحتاج إلى حذر وفضل تأمل لخفائها أحيانًا من جهة، ولشدة اتصال السياقات من جهة أخرى؛ فالتناص عملية سياقية تقوم على التفاعل بين سياق قديم، وسياق جديد في نص واحد، وعلى هذا يكون الحذر في تحليل مواضعه، و"رصد التناص فيه يحتاج إلى حذر وتنبه؛ ذلك أنَّ الاعتماد على المفردات وحدها لا يمكن أنْ يقود إلى رصد التداخل ؛ لأنَّ المفردات قبل التركيب لا يختص بها أحد دون الآخر ؛ وإنَّما تأتي الخصوصية من دخول المفردة في تركيب أولًا ، ثم دخول التركيب في سياق ثانيًا "(٢).

التناص ومظاهره في كتب أدب الرحلات :

أولًا: التناص مع القرآن الكريم:

يمثل القرآن الكريم مصدر التناص الرئيس في النصوص العربية لأنه البيان الإلهي المعجز في الاستعمال اللغوي؛ فهو يضفي ظلالًا معنوية ثرية على كل النصوص التي تتقاطع معه من خلال طريق التناص ويأخذ التناص القرآني في كتب الرحلات في القرن الرابع الهجري مستويات عديدة، قد تبدأ هذه المستويات بالاقتباس الصريح الذي يوظفه المؤلف توظيفًا صريحًا من خلال الدمج السياقي الصريح، وقد يكون المستوى إيحائيًا، وهذا المستوى الأخير يحتاج إلى تأمل في السياق كي يتم الاستدلال عليه، وتكون طرق الدمج السياقي فيه مختلفة ودقيقة أيضًا.

ومن الاقتباس الصريح مع النص القرآني ما أورده المسعودي في مروج الذهب تحت عنوان (عاد الأولى)، حيث يقول:

"ذكر جماعة من ذوي العناية بأخبار العالم أن الملك يُؤثر من بعد نوح من عاد الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلها، ومصداق ذلك قوله عز وجل **"وأنه أهلك عادًا الأولى"** فإنه يدل على تقدمهم ، وأن هناك عادًا ثانية، وأخبر الله عن ملكهم، ونطق بشدة بطشهم، وما بنوه من الأبنية المشيدة التي تدعي على مر الدهور العادية، وقد أخبر الله تعالى

(١) محمد عناني : المصطلحات الأدبية الحديثة ، دراسة ومعجم إنجليزي عربي ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ٢٠٠٣م، ص ١١٠.

(٢)محمد عبد المطلب، التناص القرآني في (أنت واحدها) لمحمد عفيفي مطر، بحث منشور في مجلة إبداع، عدد: ١٢، ١ ديسمبر ١٩٨٩م، ص١٨.

عن قول نبيه هود عليه السلام، وخطابه إياهم **"أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين"** [١].

وقع التناص في شكله الصريح أو المباشر، وهو ما يعرف بالاقتباس، حيث اقتبس المسعودي الآية الأولى، وهي من سورة النجم الآية الخمسون، واقتبس الآيات من سورة الشعراء من (١٢٨: ١٣٠) ويمثل الاقتباس الصريح بهذه الآيات المستوى الأول من مستوى التناص المباشر مع النص القرآني، وغاية ما يفعله المؤلف أن يعطي النص القرآني مكانه الصحيح من خلال التهيئة السياقية، أو الدمج السياقي ونلحظ في هذه الاستشهادات أن الدمج السياقي جاء صريحًا أيضًا، على نحو "ومصداق ذلك قوله عز وجل"، ونحو "وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه إياهم.

وقد يعرف هذا المستوى التناصي بالاستشهاد، التفاعل –هنا- يكون من القديم نحو الجديد ؛ لأنَّ أصل التركيب موجود في النص المصدر؛ حيث الآيات القرآنية الكريمة ، وهذا الاتجاه الدلالي يتناسب وأحد أنماط التضمين ؛ لأنَّ الاستشهاد " يأخذ مشروعيته كواجهة للتناص يجعل إدراج نص في آخر واضحًا ؛ فتتجلى الرموز الخطية في عزل العبارة المستشهد بها" [٢].

ومن ذلك ما ورد في تفسير الرحالة العرب لأسماء البلدان من الحجاز والعراق وغيرها، يقول:

"تنازع الناس في اليمن وتسميته؛ فمنهم من زعم أنه سمي يمنًا؛ لأنه عن يمين الكعبة، وهو التيمن، وسمي الشام شامًا لأنه عن شمال الكعبة، وسمي الحجاز حجازًا لأنه حاجز بين اليمن والشام، نحو ما أخبر الله عز وجل عن البرزخ، الذي بين بحر القلزم وبحر الروم، بقوله عز وجل "وجعل بين البحرين حاجزا"..." [٣].

وهذا يتطلب من المتلقي استرجاعًا لسياقات النص القرآني، وهذا الاسترجاع هو من أبعاد الجمال التناصي؛ و" المتابعة الجمالية تعنى بإنجازات النص على المستوى التعبيري ، من خلال التدقيق في اختيارات المبدع من ناحية وقدرته على تشكيل اللغة من ناحية أخرى ، ثم تأتي

---

[١] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، اعتنى به وراجعه (كمال حسن مرعي) ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،٢٠٠٥م ، ٢/ ٢٠٣.

[٢] ناتالي بييقي، من أنماط التناص _ علاقات الحضور المتفاعل، ترجمة د / عبد الحميد يورابو ، مجلة معالم ، ع ٤ ، ا أبريل ٢٠١١م، ص٧٣ .

(٣).المسعودي : مروج الذهب: ٢/ ص٦٢.

المتابعة الاسترجاعية ، التي تقدم الناتج الثاني مرورًا بالناتج الأول للدلالة باعتباره ركيزة التحرك الأساسية "[١].

وقد يستغني المؤلف عن المقدمات التمهيدية الصريحة ؛ اعتمادًا على وضوح النص القرآني في سياقه، ومن ذلك:

"ومن ذلك ما فُعل بأبي ذر، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم؛ فقال عثمان: أرأيتم من زكى ماله، هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين، فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يا ابن اليهودي، ثم تلا **"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب"**((٢)).

حيث لم ترد تمهيدات صريحة على نحو ما سبق من قوله : قوله تعالى، أخبر الله تعالى، ولكن المؤلف عدل عن التصريح إلى المقدمة الإيحائية؛ فقوله (ثم تلا) مستقر في الأذهان على أن التلاوة لا تكون إلا للقرآن الكريم من جهة، ثم شدة وضوح الآية القرآنية من جهة ثانية، وهذا الإيحاء في آليات الدمج السياقي يعطي جمالًا أكثر من التصريح؛ فبلاغته أعلى وأظهر.

يقول الدكتور / خليل الموسى في العلاقة الإيحائية مع النصوص المقدسة " وإذا كان حضور النص الغائب في النص الراهن حضور إعجاب ؛ فإنَّ النص الراهن يظل تابعًا للنموذج المقدس، الذي يمثله النص الغائب، **وتكون وظيفة النص الراهن - حينذاك - استدعاء التراث استدعاء إيحائيًا ضمن صورته الأولى** ، أمَّا إذا كان حضور الغائب في النص الراهن حضور منافرة وحوار ؛ فإنَّ النص الراهن يحاول بالتناص ومن خلال الهدم وإعادة البناء تجاوز النص الغائب ومزاحمته ... **وتكون وظيفةُ النص الراهن - حينذاك - استلهام التراث استلهامًا توظيفيًا ضمن صورة مختلفة عن صورته الأولى ، ومعبرة عن زمن إنجاز النص الراهن** "[٣].

ويبلغ التناص القرآني ذروته حين يكون من طريق غير طريق الاستشهاد أو الاقتباس المباشر، حيث يعتمد بعض المفردات التي لها خصوصية أو ظلال قرآنية، وقد سبق القول بأنه ينبغي الحذر في تحليل مواضعه، فـ"رصد التناص فيه يحتاج إلى حذر و تنبه؛ ذلك أنَّ الاعتماد على المفردات وحدها لا يمكن أنْ يقود إلى رصد التداخل ؛ لأنَّ المفردات

---

(١) محمد عبد المطلب: التناص القرآني ، ص١٤..

(٢)المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢٨٤/٣.

(٣)خليل الموسوي، التناص ومرجعياته في نقد ما بعد البنيوية، بحث منشور في مجلة المعرفة السورية، ص١١١و١١٢.

قبل التركيب لا يختص بها أحد دون الآخر ؛ وإنَّما تأتي الخصوصية من دخول المفردة في تركيب أولًا ، ثم دخول التركيب في سياق ثانيًا "[١].

ومن ذلك قول المقدسي "والمندم مضيق صعب لا يسلك إلا في شباب الريح قوتها، ثم يتلجلج البحر إلى عمان، **وترى ما ذكر الله أمواجا كالجبال الراسيات،** إلا أنه سليم في الذهاب، مخوف في الرجعة من العطب والغرق"[٢].

ثانيًا: التناص مع الحديث النبوي الشريف:

يحتل التناص مع الحديث النبوي الشريف المرتبة الثانية في وقع التناص بعد القرآن الكريم، من حيث الأهمية والاستعمال النصي في كتب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، وإذا كان التناص مع القرآن الكريم يأتي مباشرًا وغير مباشر، أو بعبارة أخرى يكون تصويرًا واجترارًا، فإن التناص مع الحديث النبوي الشريف يكون أقرب إلى الاجترار منه إلى التناص التصويري.

ومن ذلك قول المسعودي:

" **العائد في هبته كالعائد في قيئه** [٣]، زاجرًا بهذا القول للواهب أن يسترجع شيئًا وهبه؛ وإذا كان القيء لا يرجع فيه من قاءه، وللناس في هذا المعنى كلام كثير، وخطب طويلة، وإنما الغرض فيما نذكر إيراد كلامه - صلى الله عليه وسلم- ووصف قوله الذي لم يتقدمه به أحد من الناس .

ومن ذلك قوله: **احثوا في وجوه المداحين التراب،** المراد من ذلك إذا كذب المادح، ولم يرد عنه - صلى الله عليه وسلم- إذا شكر الإنسان غيره..."[٤].

نجد أنّ التناص قد وقع مع الحديث النبوي الشريف من طريق النقل والاقتباس والاستشهاد، وبعبارة علم اللغة الحديث من طريق الاجترار لا التصوير، وقد اتضح ذلك من خلال آليات الدمج السياقي؛ حيث نجد إشارات كثيرة متعددة حول الدلالة على شخص الرسول القائل

---

[١]محمد عبد المطلب: التناص القرآني, ص١٨.

[٢]المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها شاكر العيني المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، ص١٤٠.

[٣] المسعودي : مروج الذهب : ٢/ ص٢٥٥ ، وهذا الحديث رواه محمد بن إسماعيل البخاري في : صحيح البخاري ، تحقيق محمد زهر بن ناصر ، دار طوق نجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ ، ج٢ ، ص٢٢٠.

[٤].المسعودي : مروج الذهب : ٢/ ٢٥٥، وهذا الحديث رواه الإمام مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباني ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط١، ١٤١٧هـ، ص٢٨٨٨.

ومن ذلك (كلامه صلى الله عليه وسلم)؛ فهو صريح الدلالة على أن النص المقتبس من حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان التناص مع القرآن الكريم يرد مباشرة، فإنّ هناك اختلافًا مع التناص في الحديث النبوي الشريف؛ فالاقتباس أو الاستشهاد من القرآن الكريم يرد مرة واحدة، في حين يرد التناص المباشر مع الحديث النبوي الشريف في أكثر من موضع، فقد ورد في هذا النقل الحديث مرتين، مما يعطيه انتشارًا أوسع في ظاهر نص الرحلات وأدبه وكتبه ومؤلفاته.

ومن التناص مع الحديث النبوي الشريف، ما يورده المؤلفون في سياق السيرة النبوية وغزواتها، ومن ذلك ما أورده المسعوي في المروج حيث يقول على لسان سعد بن أبي وقاص وهو يحاور معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم جميعًا:

"والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي يوم خيبر: **"لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، ليس بفرار يفتح الله على يديه"** أحب إلي أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس" [١].

فقد وقع التناص مع الحديث النبوي الشريف في سياق تاريخي وهو ما كان ليلة فتح خيبر، والمقصود بالكلام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبهذا يمكن القول بأن التناص مع الحديث النبوي الشريف قد أخذ طابع النقل والاستشهاد والاجترار، ولم يأخذ طابع التناص التصويري.

فالاستدعاء - هنا - استدعاء قولي ، والاستدعاء بعامة ينقسم إلى " قولي ، ونفسي - إنْ جاز التعبير- يتخذ مسارات تتعدد ، ودلالات تتنوع على حسب ... استخدامها ، والتمكن من تلاصق الصوتين ، السابق واللاحق ... " [٢].

ومثله قول المسعودي أيضًا:

"وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - دعا له حين وضع الماء للطهور في بيت خالته ميمونة، زوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال: **"اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"** [٣].

حيث نجد التناص المباشر من خلال تضمين المؤلف للنقل بشكل مباشر وصريح، في دعاء الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لابن

---

[١]السابق، ٣/ ٢٠، البخاري : صحيح البخاري ، ٢٨٧٠

[٢] رجاء عيد: النص والتناص ، بحث منشور بمجلة علامات في النقد ، عدد ١٨ ، ا ديسمبر ، ١٩٩٥م ، ص ١٨٥ .

[٣]المسعودي، مروج الذهب، ٣/ ٨٨، البخاري : صحيح البخاري : ص ٢٨٧٠.

عباس - رضي الله عنهما - وهو ما يؤكد القول بأن التناص مع الحديث النبوي الشريف لم يقع إلا بوجه واحد هو الاقتباس المباشر، أو الاستشهاد والتصريح وهو ما يتوافق مع طبيعة السنة النبوية من حيث السهولة واليسر ، وكذلك هي أسرع في الاستخدام عند استعمالها لأي غرض.

ثالثًا: التناص مع الشعر العربي:

يأتي الشعر العربي مصدرًا من مصادر التناص في كتب أدب الرحلات، وللشعر طبيعته الخاصة في التناص؛ فيغلب عليه أن يأتي من طريق الشواهد أو الاقتباس والتناص المباشر، وهذا النوع من التناص مفروض بطبيعة الشعر؛ لأن دواوينه كثيرة، ولا يبلغ دقة القرآن وحفظه وبلاغته، ومن ثم كان القرآن الكريم المصدر الأوحد لما يمكن تسميته بالتناص التصويري أو الإيحائي؛ لثبات معانيه في القلوب وتعلقها به.

واستدعاء الشعر والتناص معه هو من باب توثيق المعاني المرادة في أدب الرحلات، وعلى ما سبق يمكن القول بأنَّ الاستدعاء والإحلال " قد يكون من مهامه توثيق دلالة، أو تأكيد موقف ، أو ترسيخ معنى، أو بمؤازرة النص إمَّا بتضمين صريح ، وإمَّا بتلميح وتلويح أو يكون من وجه آخر رفضًا لمقولة ، أو نفيًا لمعتقد "[١].

ومن ذلك قوله في صفة أرض مصر:

"هي مصر، إن لم يصبها وابل زكت، وإن أصابها مطر ضعفت، وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها:

مصـــر، ومصـــر شـــأنها عجيـــب ونيلهـــا تجـــري بـــه الجنـــوب
(٢)

فوظيفة التناص مع الشعر هنا في هذا السياق تأكيد المعاني الواردة في النص من وصف مصر، وأن المطر يضرها ولا ينفعها؛ لأنّ النيل هو مصدر الخير فيها لا المطر، وهذا عجيب قياسًا على البلدان الأخرى التي تعتمد اعتمادًا كليًا على الأمطار, حيث وفرة الأمطار وندرة الأنهار.

وهذا المعنى المؤكد من الممكن أن يكون بديلًا عن المعنى في النص؛ فيكون الشعر في هذا التناص بديلًا من النصوص في المعاني المراد التعبير عنها، يقول صبري حافظ في بحثه الرائد عن إشاريات التناص في العمل الأدبي : " ومعرفة القارئ بأحد النصوص الأساسية التي لم يتح له قراءتها ؛ ليست ناجمة فحسب عن كون هذا النص أحد النصوص الغائبة أو الذائبة فيما قرأه ؛ ولكنَّها وليدة ظاهرة تناصية أخرى

---

[١]رجاء عيد: النص والتناص، ص١٨٥.

[٢]المسعودي : مروج الذهب ، ٢٦٠/٢.

وهي مسألة الإحلال والإزاحة ، التي تعتبر واحدة من سمات آليات التناص ، أو حركية علاقات النصوص بعضها بالبعض الآخر" [١].

ومن ذلك ما عرضوا له في الفخر بين دعبل والكميت، يقول:

"وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي في قصيدته التي يرد فيها على الكميت، وفخر دعبل بمن سبق من ملوكهم ومسيرهم في الأرض، وأن لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان؛ فقال في شعره:

همـــو كتبـــوا الكتـــاب ببـــاب مـــرو وبـــاب الصـــين كـــانوا الكاتبينـــا

وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهـــم غرســـوا هنـــاك التبتينـــا

وقد كان لليمن ملوك لا يدعون..." [٢].

فالفخر الوارد في البيتين وارد في الكلام المنثور قبله، ما يصح معه جعل المعاني فيه معانيَ بديلة للكلام السابق عليها، فعملية الإحلال لموطن التناص ومعرفته من قبل المتلقي ضرورة من ضرورات التلقي الصحيح لفهم النص فهمًا جيدًا ؛ لأنَّ جدليات الإحلال تترك " بصماتها على النص ، وهي بصمات مهمة ، وتوشك معها فاعلية النص المزاح ألا تقل في أهميتها ، وقوة تأثيرها عن فاعلية النص الحال ، الذي احتل مكانه ، أو شغل جزءًا من هذا المكان ؛ لأنَّ النص الحال قد ينجح في إبعاد النص المزاح ، أو نفيه من الساحة ولكن لا يتمكن أبدًا من الإجهاز عليه كلية ، أو من إزالة بصماته عليه " [٣].

وهكذا يتميز الشعر بوصفه مصدرًا من مصادر التناص باختلاف دلالته النصية عن غيره من المصادر التناصية التي سبق عرضها في سياق التأثير بين القديم والجديد، وهكذا يمكن القول بأن كل مصدر من مصادر التناص له ما يميزه.

ومنه ما استشهد به المؤلف في قصة مقتل طلحة، حيث يورد الوصف التالي:

"... فرماه في أكحله فقتله؛ فمر به علي بعد الوقعة في موضعه في قنطرة قرة، فوقف عليه؛ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كارهًا لهذا، أنت والله كما قال القائل:

فتـــى كـــان يدنيـــه الغنـــى مـــن إذا مـــا هـــو اســـتغنى ويبعـــده صـــــــــــــــــــــديقه الفقـــــــــــــــــــــــــــــــر

---

[١] صبري حافظ: التناص وإشاريات العمل الأدبي ، بحث منشور بمجلة عيون المقالات المغربية ، عدد : ١ ، ا أبريل ، سنة ١٩٨٦م، ص ٧٩ .

[٢] المسعودي : مروج الذهب : ٣/ ص٩٨.

[٣] صبري حافظ، التناص وإشاريات العمل الأدبي، ص٨٠.

كـــأن الثريـــا علقـــت فـــي يمينـــــــــــــــــــــــــــه **وفي خده الشعرى، وفي الآخـــــــــــر البـــــــــدر** [١]

ويمكن القول بأن مثل هذا الشاهد يمثل في كتب الرحلات نوعًا قليل الورود في التناص مع الشعر العربي، حيث يكون التناص التصويري؛ فالكاتب يقتبس من الشعر ما يكمل به تصوير الموقف، وقد سبق القول بأن الأغلب الأعم في التناص الشعري أن يكون بغرض الاستبدال المعنوي أو الإزاحة في إطار من التأكيد الدلالي بين النصوص المتفاعلة.

فالإزاحة لا تعني الاستغناء ، أي " دون أنْ يطرح المفهوم المستبدل خارج الساحة كلية ؛ لأنَّ البديل في عالم النقد الجديد لا يستغني عن المبدل به ، ولكنه يحتاج إليه ، ويتفاعل معه باستمرار ؛ إذ يعيد الجديد تعريف القديم ، ويمكننا رؤيته في ضوء جديد ، ثم ما يلبث هذا القديم الذي أعيدت رؤيته أنْ يكشف لنا عن بعض ما في الجديد من أبعاد مختلفة" [٢].

وعلى هذا يمكن القول **بأنَّ آلية التحويل التركيبي أو التركيبي الدلالي لا بد أنْ تصادف سياقًا صالحًا ؛ بل** " يجب أنْ ندرك أنَّ أكثر المبدعين أصالة مَنْ كان تركيبه الفني ذا طبيعة تراكمية ؛ بمعنى أنَّ الروافد السابقة قد وجدت فيه مصبًا صالحًا لاستقباله، ومن الحقائق التي يجب أنْ نعترف بها أنَّه لا وجود لمبدع يخلص لنفسه ، وإنَّما هو مكون - في جانبه الأكبر - من خارج ذاته بوعي أو بغير وعي ، ولتحقيق عملية التعرف عليه يجب أنْ نرصد الخطوط الداخلة عليه من هنا أو من هناك ؛ وهنا تتجلى أصالته الحقيقية " [٣] وهذا هو التكوين الطبيعي للمبدعين ؛ حيث إن التناص بأشكاله وأنواعه المختلفة معين لا ينضب.

رابعًا: التناص مع الأقوال والأمثال:

يقع ذلك النوع من التناص في مساحات نثرية مختلفة من الكلام العربي؛ فهو مجال واسع بوصفه مصدرًا من مصادر التناص في أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، ويشمل الأمثال والحكم وبعض الأقوال المأثورة التي لها خصوصيتها في التراث اللغوي العربي.

وإذا كان غالبًا على المصادر السابقة ظاهرة الاجترار, فإن الامتصاص هو الأغلب في التناص مع ذلك المصدر من مصادر التناص والامتصاص المعنوي " يمثل مرحلة أعلى من مرحلة قانون الاجترار

---

[١] المسعودي : مروج الذهب ١/ ص٢٨٥.
[٢] صبري حافظ: التناص وإشاريات العمل الأدبي، ص٨٢.
[٣] محمد عبد المطلب: التناص القرآني، ص١٥.

فيتعامل النص الراهن مع النص الغائب تعاملًا مختلفًا ؛ فيسعى إلى احتوائه وتذويبه في النص الجديد ، للاستفادة من مكوناته ومعطياته ؛ فيقوم بامتصاصه ، وإعادة إنتاجه وتشكيله وفقَ رؤية جديدة ، وتجربة جديدة "[١].

ولكن ذلك لا يمنع من اجترار هذا المصدر من مصادر التناص فيكون دور المؤلف شارحًا للأمثال أو جامعًا لها، ومن ذلك على سبيل المثال:

"وقد ذهب جماعة من ذوي الروايات إلى أن قول الناس في أمثالهم (عنقاء مغرب) إنما هو للأمر العجيب النادر وقوعه، وقولهم (جاء فلان بعنقاء مغرب) يريدون أنه جاء بأمر عجيب، قال شاعرهم:

وصبحهم بالجيش عنقاء مغرب [٢].

أول ما يلحظ في هذا الشاهد اجتماع مصدرين من مصادر التناص، الشعر والأمثال، وكلا المصدرين كان اجترارًا لا تصويرًا والمراد توكيد أحدهما بالآخر، واكتفى المؤلف بشرح المثل وما يرد فيه وهو للأمور النادرة الوقوع العجيبة، وقد كوّن به المؤلف صورته الوصفية، وهو مظهر من مظاهر التفاعل مع النصوص في كل حال وتعدد الأصوات ؛ فـــ " فيه حوار الحاضر للماضي ومحاولة التعبير بالماضي عن الحاضر ، وفيه تجلياتٌ من حوار الذات مع الآخر ينطلق من النص المفتوح ، الذي تتقاطع فيه المعاني ، وتتحاور ، وتتلاقى فيه الأصوات وتتباعد "[٣].

ومن ذلك قول المقدسي:

"وأشدُّ هذا الإقليم بردًا بعلبك وما حولها، ومن أمثالهم (قيل للبرد أين نطلبك، قال بالبلقاء*، قال فإن لم نجدك، قال بعلبك بيتي" [٤].

وهكذا اكتمل المعنى الواصف لشدة البرد من خلال الاعتماد على المثل المضروب لذلك اعتمادًا مباشرًا، وقد حدث الدمج السياقي أيضًا بشكل مباشر، فـــ " النص الأدبي إنَّما ينتج ضمن حركة معقدة من

---

[١] خليل الموسوي: التناص ومرجعياته، ص١٠٦.

[٢] المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٠٥.

[٣] خليل الموسوي: التناص ومرجعياته، ص٨٥.

* البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان ، وسميت بالبلقاء لأن بالق من بني عمان بن لوط، وقيل إن بلقاء لبني أبي بكر وبني قريط ينظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان (ت٦٢٦هـ) ،دار صادر ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٥م ١/ ١٨٩.

[٤] المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٢١٧.

إزاحة نصوص من مكانها ، ومحاولة الإحلال محلها ؛ مما يدخل النص الحال في صراع مع النص المزاح ؛ فيحاول إبعاده وإزاحته ، لكنه لا يستطيع نفيه كلية ؛ بل يظل مترسبًا في كيانه " [١].

وقد سبق القول بأن التناص مع ذلك المصدر يكون تلميحًا لا تصريحًا حيث يُضمِّن المؤلف المثل أو القول منتزعًا له من سياقه القديم ويضعه في سياق جديد مناسب، ومن ذلك صفتهم لبلاد المغرب :

"وفي هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصفرية الخوارج لهم مدن ممدودة، مثل مدينة ثرغية، وفيها معدن كبير من الفضة، وهو مما يلي الجنوب، ويتصل ببلاد الحبشة، والحرب بينهم سجال" [٢].

نجد أن قوله (**الحرب بينهم سجال**) من نوع التناص التصويري عمد المؤلف إلى وضعه في سياقه المضمن دون الإشارة إلى مصدره وأصل القول (الحرب بيننا سجال)، وهي كلمة لأبي سفيان - رضي الله عنه - قالها في صفة حرب قريش مع الرسول الكريم - صلي الله عليه وسلم - أمام ملك الحبشة.

وهذا هو النوع الفني في التناص، أو التفاعل النصي، وفيه بعد من الاعتماد على الواقع التاريخي العربي، فالقراءة التاريخية " تبدأ بعملية تتبع أولي ؛ لتحسس البنى الرئيسة في العمل ، ثم ترتد منها - في حركة واعية - إلى مردودها القديم ؛ وهكذا تكون عملية التلقي أشبه بالحركة (البندولية) السريعة ، التي تربط بين نقطتين متوازيتين " [٣].

وعلى هذا يمكن أن يكون التاريخ مصدرًا من مصادر التناص؛ حيث يكون التناص واقعًا مع الأحداث التاريخية المختلفة.

الخاتمة:

فيما سبق وجدنا أن التناص أو التفاعل النصي مكون رئيس من مكونات أدب الرحلة؛ لأنه أدب وصفي في المقام الأول والأخير، وهو في حاجة ماسة إلى التفاعل مع النصوص المختلفة داخل الثقافة العربية، وقد أمكن الخروج بما يلي من نتائج:

- تعددت مصادر التناص في أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، وهي على نحو ما يلي من جهة الاستعمال: القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف، الشعر العربي، الأقوال والأمثال وما يجري مجراها، والتناص مع الأحداث التاريخية.
- كان التناص في هذه الكتب منحصرًا في نمطين، هذان النمطان هما: الاجترار والتصوير، والاجترار هو نقل النصوص نفسها مباشرة

---

[١] عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي ، ص ٢٧ .

[٢] المسعودي : مروج الذهب ١/ ١٦٢.

[٣] محمد عبد المطلب: التناص القرآني، ص١٤.

ويدخل فيه ظواهر عديدة من الاقتباس والاستشهاد وغير ذلك من طريق التوظيف المباشر، في حين يكون التناص التصويري تناصًا فنيًا بمعنى الكلمة ويتطلب من المبدع والمتلقي ثقافة ودقة إدراك.

- اختلفت آليات الدمج السياقي بين نوعي التناص، وذلك بوصف التناص عملية تفاعلية بين سياقين مختلفين في المقام الأول والأخير فالتناص المباشر، يمهد له المبدع بشكل مباشر لا يحتاج معه المتلقي إلى إعمال الذهن، في حين يكون الدمج السياقي ألطف مسلكًا، ويحتاج إلى مزيد عناية وتأمل لإدراكه.

- اختلفت أهداف التناص في كتب الرحلات في القرن الرابع الهجري؛ فقد يتفق السياقان القديم والجديد، ويكون الغرض من التناص حينئذ التأكيد أو الإحالة أو الإزاحة، وقد يفترق السياقان فيكون الهدف في المقام الأول استغلال نصوص المصادر في تصوير المعاني المختلفة التي يريدها الكاتب في أدب الرحلات.

- هناك مصادر في التناص تقع في الاجترار والتصوير، يمثلها القرآن الكريم في المقام الأول، في حين يغلب على بقية المصادر طابع النقل والاقتباس والاستشهاد في الأغلب الأعم.

- على الرغم من كون التناص غير مذكور باصطلاحه في التراث اللغوي فإن التراث اللغوي العربي خاصة البلاغي والنقدي منه قد اشتمل على آلياته صراحة.

المصادر والمراجع:

١. أحمد عبد الراضي: المعايير النصية في القرآن الكريم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١: ٢٠١١م.

٢. البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري): صحيح البخاري ، تحقيق محمد زهر بن ناصر ، دار طوق نجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ .

٣. حصة البادي : التناص في الشعر العربي الحديث (البرغوثي أنموذجًا) ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع ، الأردن ط١، ٢٠٠٩م.

٤. خليل الموسوي : التناص ومرجعياته في نقد ما بعد البنيوية، بحث منشور في مجلة المعرفة السورية.

٥. رجاء عيد : النص والتناص ، بحث منشور بمجلة علامات في النقد عدد : ١٨ ، ا ديسمبر ، ١٩٩٥م.

٦. صبري حافظ: التناص وإشاريات العمل الأدبي ، بحث منشور بمجلة عيون المقالات المغربية ، عدد : ١ ، ا أبريل ، ١٩٨٦م.

٧. عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١, ٢٠٠٧م.

٨. محمد عبد المطلب: التناص القرآني في (أنت واحدها) لمحمد عفيفي مطر، بحث منشور في مجلة إبداع، عدد ١٢، ١٩٨٩م.
٩. محمد عناني : المصطلحات الأدبية الحديثة ، دراسة ومعجم إنجليزي عربي ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ٢٠٠٣م.
١٠. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، اعتنى به وراجعه (كمال حسن مرعي) ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٥م.
١١. مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج) ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباني ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط١، ١٤١٧هـ.
١٢. المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،حررها وقدم لها شاكر العينى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٣م.
١٣. ابن منظور (محمد بن مكرم) : لسان العرب ، (تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٤. ناتالي بييقي: من أنماط التناص- علاقات الحضور المتفاعل، ترجمة د / عبد الحميد يورابو ، مجلة معالم ، ع ٤ ، ا أبريل ٢٠١١م.
١٥. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله) : معجم البلدان (ت٦٢٦هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط٢, ١٩٩٥م.